

أهمية العلوم الاجتماعية في فهم و بناء المجتمع

دريش حلمي

أستاذ محاضر قسم أ

جامعة البليدة2

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تبيان أن العلوم الاجتماعية رغم التهميش الذي تتعرض له في البلدان العربية مقارنة بالعلوم الطبيعية، ستبقى بمناهجها المستقلة وموضوعها الذي يتميز بكونه يشترك مع الباحث في عدة صفات، وسيلة أساسية مثلها مثل العلوم الطبيعية لبناء المجتمع، وأن الطبيعة والمجتمع سبقيان الحقل الرئيسي للعلم، أين يجب الاعتراف أن نتائج الدراسة في المواضيع الاجتماعية لا ترقى إلى نفس الدقة التي هي عليه في العلوم الطبيعية. الكلمات الدالة: بناء، المجتمع، العلوم الاجتماعية، العلوم الطبيعية.

Abstract:

This article aims to show that the social sciences, despite the marginalization of the Arab countries, compared to the natural sciences will remain with its independent curricula and subjects matter which is characterized by being involved with a research in several descriptions as basic means, like the natural sciences to build community. And that the nature and society will remain the main field of science, where it must be recognized that the results of the study on social themes, do not live up to the same perfection that of the natural sciences.

Keywords: building, community, social sciences, natural sciences.

تمارس الحكومات العربية عبر عقود تجاهل تجاه العلوم الاجتماعية، أين وصفت هذه الأخيرة دائما باعتبارها علوما تنتج الكلام فقط، أو علوم من الدرجة الثانية، حيث انخرطت دول العالم الثالث على امتداد سنوات في تركيز استثماراتها العلمية على ما يعرف بالعلوم الطبيعية، أي تلك العلوم التي كان يعول عليها لبناء المصانع والمجتمع معاً، غافلتنا أن من يبني هذه المصانع ويشغلها هو الفرد الذي هو الحجر الأساسي لأي بناء حضاري. في إطار هذا التجاهل تم توجيه الطلبة النجباء إلى الفروع الطبيعية، بينما يوجه الطلبة أصحاب المعدلات الضعيفة إلى التخصصات الاجتماعية. "إننا ننفق أموالاً باهظة في المجالات العسكرية، أو من أجل الغوص في أسرار المادة، لكننا لا نكاد ننفق شيئاً يذكر نسبياً، من أجل معرفة حياتنا الاجتماعية". (marc guillaume)

يتجسد الإهمال الذي مورس لعقود تجاه العلوم الاجتماعية، في القرارات التي تتخذ من الجهات الرسمية في البلد بدون إشراك الجامعة والمختصين، فقد ساهم الرميون بذلك في ترسيخ طلاق بين الجامعة والمجتمع بصفة عامة، حيث لم يحدث في الجزائر مثلاً أن كلفت الجامعة بفهم وتفسير أحداث أكتوبر 88 أو أحداث جانفي 2011، رغم كون أن هذه العلوم (الاجتماعية) وعاء يستوعب الشباب حتى لا يكونوا عرضة لأوعية أخرى.

1- شرح المصطلحات

اعتمدت في شرح هذه المصطلحات على هوامش كتاب موريس أنجرس: منهجية البحث في العلوم الإنسانية

* علوم الطبيعة: علوم تتخذ من المجالات الفيزيائية والحيوية موضوعاً للدراسة.

** فروع العلوم الإنسانية: إن أية محاولة لوضع قائمة تامة وصادقة لكل الفروع التي يمكن إدراجها تحت اسم العلوم الإنسانية، ربما ستكون عملية متهورة. فضلاً عن ذلك لا يوجد (حسب علمي) تعريف واضح ومقبول للفروع التي يحتوي عليها قطاع العلوم الاجتماعية. ويمكننا في نفس الوقت الاحتراس من أن كل مواضيع الدراسة الخاصة بالكائن البشري والتي يتم تناولها بكيفية علمية، هي بالضرورة فروعاً للعلوم الإنسانية. وهكذا يمكن الإقرار أنها تضم، الأنثروبولوجيا، علم الإجرام، الديموغرافيا، الاقتصاد، الأثنولوجيا، الجغرافيا، التاريخ،

الحضارات القديمة، علم النفس، علم النفس الاجتماعي، الإبداع الفني، العلاقات الصناعية، علم السياسية، العلوم الإدارية، علوم اللغة، العلوم القانونية وعلم الاجتماع.

***** العلوم الاجتماعية:** علوم تتخذ من الكائن البشري وما تعلق بها موضوعا للدراسة.

***مشكلة بحث:** عرض هدف البحث في شكل سؤال يتضمن إمكانية التقصي بهدف إيجاد إجابة.

•التجربة: فعل إثارة ظاهرة بهدف دراستها.

•المختبر: محل مخصص ومجهز بهدف إجراء تجارب علمية.

••مقابلة المجموعة: مقابلة بحث لمعرفة ردود أفعال مجموعة معينة من الأفراد الذين يشتركون في شيء ما.

1- تتجسد أهمية العلوم الاجتماعية من خلال ميدان دراستها

يمكن القول بصفة عامة، أن العلم هو في الأساس موجه إلى دراسة الطبيعة. يضم هذا المصطلح العالم الفيزيقي وكذلك عالم الأحياء. بكلمات أخرى، فإن كل ما هو موجود أو منتج دون تدخل من طرف الإنسان يمثل ما نسميه بالطبيعة، أين أوجدت فروع مثل الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، فقد لدراسة هذه الطبيعة. وسواء سميت بالعلوم الطبيعية أو الصحيحة أو الدقيقة، أو مجرد علوم فإنها حاليا تسمى بعلوم الطبيعة*. هناك فروع أخرى متصلة بها مثل الفلك، الجيولوجيا وأخرى جديدة تكونت عن طريق ما يسمى بالتوأمة مثل الفيزياء الفلكية والكيمياء العضوية. لقد مثلت علوم الطبيعة طريقة عمل يحتذى به، لم تفتأ تتطور وتنمو بشكل معتبر إلى يومنا هذا. (موريس أنجرس ، 2008، ص58)

من جهته، يعتبر الفرد موضوع دراسة له خصائصه ومميزاته العلمية، والهدف من مثل هذه الدراسات التي تجري في مختلف فروع العلوم الاجتماعية،** هو معرفة وفهم الإنسان ومعني أو دلالة أفعاله. تشتمل هذه العلوم التي كانت تسمى في السابق بعلوم الإنسان، ثم لاحقا بالعلوم الاجتماعية***، خاصة في العالم الانجلوسكسوني، على فروع عديدة تقوم بدراسة الانسان من جوانب متعددة؛ ففي علم النفس، مثلا، فإن التركيز يكون بصفة خاصة على الظواهر النفسية، أما في علم الاجتماع فإننا سنبحث خاصة عن تفسير الظواهر الاجتماعية؛ أما في التاريخ فإننا سنقوم بدراسة الأحداث والوقائع الماضية؛ أما العلاقات السياسية والاقتصادية والإدارية فإنها ستكون موضوع اهتمام فروع علم السياسة وعلم الاقتصاد والإدارة. إن ظاهرة الجريمة علي سبيل المثال، يمكن أن تدرس من زاوية علم

النفس (شخصية المجرمين) أو من زاوية اقتصادية (تكاليف الاعتقال) أو من زاوية سياسية (السياسات العقابية) أو من زاوية سوسولوجية (الوظيفة الاجتماعية للاعتقال) أو من زاوية تاريخية (تطور العقوبات) أو من زاوية إدارية (تنظيم السجون) أو من زاوية دينية (تدريس المقدسات) أو من زاوية أنثروبولوجية (التدابير العقابية لدى بعض الجماعات). إن هذا النفرع والتفتح الكبير الذي أظهره الباحثون في العلوم الانسانية جعلهم واعون أن الانقسام بين فروع هذه العلوم أصبح أمرا مقلقا. (COHEN Yolande, 1985, P 521).

إن مجال العلوم الاجتماعية واسع جدا، إنه الكائن البشري في علاقته بنفسه، بأشباهه. بقدر ما يتيح هذا الحقل دراسة الشخصية فهو أيضا يمتد إلى دراسة العلاقات العالمية، مروراً بالعلاقات بين اثنين إلى غاية معرفة مجتمعه. فالكائن البشري يُنظر إليه من ثلاث جهات نظر مختلفة؛ الفرد، تطوره وسلوكه، المجتمع، بنياته وسيره، العالم والظواهر الدولية. (UNIVERSITE Harvard, 1987, P34).

غالبا ما تدرس مشكلة بحث* في العلوم الاجتماعية من طرف فروع وتخصصات مختلفة. فلما تؤسس الحكومة لجنة تحقيق، مثلا، فغالبا ما تريد من وراء ذلك الحصول على وجهة نظر المتخصصين في مجالات عديدة. إن كل تخصص سيساهم بتوضيحه الخاص للمشكلة، وأن الدراسة واسعة المجال تتطلب، في حدود الإمكان، أن ينظر إلى المشكل من كل زواياه. إن المتصفح لمجرى تاريخ العلوم الاجتماعية، كثيرا ما يلاحظ أن موضوع ما يمكن أن يكون هدفا لبحث مرة في هذا الفرع ومرة في الفرع الآخر، ومرة أخرى موضوعا لعدة فروع في نفس الوقت. يبقى أن نشير أن في ميدان العلوم الاجتماعية فإن "القيم تتحكم في البحث العلمي" (GINGRAS François Pierre, 1992, P30). بصفة عامة فإننا نفضل موضوعا عن آخر لما يشكله هذا الموضوع من المكانة في طفولتنا أو عملنا أو محيطنا أو تخصصنا أو ديننا....

2- طريقة عمل العلوم الاجتماعية

إن علوم الطبيعة هي أصل المنهج التجريبي الذي يحمل بصماتها، ولمدة طويلة لم يستخدم هذا المنهج إلا لأهداف مادية، لأن الاعتقاد الذي كان سائدا هو أن هذا المنهج غير صالح للاهتمام بالإنسان. لكن، وبفضل الطب في العلوم المرتبطة بهذا التخصص، بدأ المنهج التجريبي يمتد تدريجيا إلى دراسة الأحياء ثم إلى دراسة الإنسان بصفة خاصة. بعد الفيزيولوجي Claude Bernard، الذي قام بصياغة القواعد الأساسية في كتابه "مقدمة

لدراسة الطب التجريبي" وسع علم النفس بالاشتراك مع الفيزيولوجيا، هكذا ظهر إلى الوجود أول مخبر علمي في علم النفس في ألمانيا سنة 1879. ثم جاءت بعد ذلك أعمال الفيزيولوجي الروسي Ivan P. Pavlov التي كرست المنهج التجريبي وثبتته في دراسة الكائنات الحية بهدف تغيير سلوكياتها. منذ ذلك الحين بدأ يؤذن أو يُسمح بالتجربة على الإنسان ولكن بتوفر بعض الشروط المعينة، واستمرت البحوث في هذا الميدان منذ ذلك الحين معتمدة على هذا المنهج، لكي نفهم طريقة عمل علوم الطبيعة فهما جيدا لا بد أن نضع في أذهاننا أنها تتعامل مع الأشياء المادية؛ فهي تحاول اكتشاف العلاقات بين الظواهر أو الأشياء المادية، ولملاحظة هذه الظواهر أو الأشياء بكيفية جيدة تستعمل هذه العلوم أدوات متطورة إلى حد كبير. إن بعض هذه الأدوات مثل المجهر يساعد في بسط معاني هذه الأشياء ومكوناتها، وتمكن الملاحظ من رؤية أدق حتى لأصغر الأجسام التي تتركب منها، والتي يستحيل علينا رؤيتها بالعين المجردة، كما يسمح لنا جهاز قياس الأصوات سمع أصوات يتعذر علينا سماعها في الحالات العادية. إن هذه الأدوات والأجهزة الخاصة سمحت لعلوم الطبيعة بتنمية تجاربها وتطويرها وذلك بالعودة الدائمة إلى التجربة. بعبارة أخرى، فإننا نثير موضوعا أو ظاهرة بهدف دراستها (أو إعادة دراستها) بالرجوع عموما إلى المخبر... الذي يمكننا من خلق شروط هذه الظاهرة ومعالجة عناصرها. هكذا تصبح المادة والأداة والتجربة عناصر يتغذى منها نموذج البحث في علوم الطبيعة، هذا الأخير يوفر الشروط المثالية لتكرار التجربة كلما دعت الضرورة إلى ذلك. (موريس أنجرس، 2008، ص59).

إن العلوم الاجتماعية لها هي الأخرى طريقة عملها، وفهمها لا بد أن نضع في أذهاننا أننا بصدد دراسة كائنات بشرية. إن القضية هنا تختلف عما هي عليه في علوم الطبيعة، ذلك أننا هنا نتعامل مع كائن يتحدث، يتجاوب ويتفاعل مع أمثاله ويمتلك وعيا ومقدرة على التعلم والفهم لهذا فالتعامل مع الموضوع هنا ينبغي أن يكون مصحوبا بحذر وعناية كبيرين. قبل الشروع في دراسة هذا الكائن البشري، مثلا، لا بد من طلب إذنه، حيث يمكن أن يعارض ذلك أو يقبله، دون أن يوافق ما يقال حوله، إن الأخلاقيات واحترام حقوق الأشخاص تتطلب رضى الشخص بالمشاركة في التجربة ولا تسمح بإجراء أية تجربة كانت إن لم يوافقوا عليها، وكذلك فإن استعمال أدوات البحث لا يتم عادة إلا بموافقة الأشخاص موضوع الدراسة. إن هذا الاستعمال لأدوات البحث يمكن أن يأخذ أشكالا خاصة، ومنها إمكانية استجواب هذا

الموضوع وهو الكائن البشري وأخيرا فإن تعقد بعض الظواهر الاجتماعية لا يمكن إرجاعه إلى العلاقة البسيطة الرابطة بين السبب وأثره. إن العلوم الاجتماعية ليست تقليدا أعمى لعلوم الطبيعة، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار مميزات مواضيع كل منهما، حتى وإن كانت مجالات النشاط محددة في إطار علمي. ومع ذلك فلا يوجد تعارض في الطريقة العلمية المتبعة في كلتا الحالتين ماعدا بعض الفروق التي لا مفر منها أثناء المعالجة الفعلية اعتبارا لخصوصيات كل موضوع. (موريس أنجرس ، 2008، ص60)

3- تتميز العلوم الاجتماعية بتعقد مواضيعها

لكي نتعرف على الميزة بين علوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية، لابد من اختبار خصائص موضوعيهما بحذر شديد، أول هذه الخصائص هي أن الكائن البشري يشعر بوجوده؛ في حين يظهر أن الكائن المادي لا يدرك ولا يشعر بوجوده الخاص، زيادة على ذلك فإن الكائن البشري لا يستسلم بالضرورة لمن يقوم بدراسته، إنه يقوم بتعديل الوضع من تلقاء نفسه أثناء الدراسة، فلا نستطيع الجزم مثلا أن الباحث في مجال العلوم الاجتماعية في مأمن من احتمال تزييف المعطيات التي تحصل عليها من مقابلته لمجموعة ... من المبحوثين، أو من طرفه هو ذاته إذا لم يتفطن لذلك. فعلا فقد يمنح معنى شخصا لما يقال له ويمارس أمامه. (MUCCHIELLI Roger, 1969, P13)

هكذا فعوض أن يسجل الباحث ما يقوله المبحوث مباشرة، فسيفكر في أن هذا الأخير، بدلا من ذلك، إنما أراد قول كذا أو كذا، يلي ذلك أن الكائن البشري يعطي معنى لما يحيط به، وبكلمات أخرى إنه يؤول وجوده، إلا أنه من غير المعقول أن يكون الأمر كذلك فيما يخص الكائن المادي أو الطبيعي. فمثلا ليس في مقدور حجر كبير أن يقاوم التحليل الذي نجريه عليه، أما الشخص فيمكنه أن يعارض التأويل الذي يقدمه طرف آخر حول أفعاله وسلوكاته. (موريس أنجرس ، 2008، ص60)

يضاف إلى هذا، وخلافا لممارس علوم الطبيعة، فإن الباحث في العلوم الاجتماعية، هو من نفس طبيعة الموضوع المدروس (المبحوث). ولهذا ينبغي علينا مضاعفة الحذر حول ما تقدمه أو نذكر به حول تجربتنا الشخصية ذلك لأنها ليست بالضرورة هي نفس تجربة الآخرين. ولهذا ينبغي علينا أيضا تجنب منح الآخرين دوافعنا وحوافزنا الخاصة. (موريس أنجرس ، 2008، ص61)

يضاف إلى ذلك أن الأشخاص أو الجماعات، ليسوا صوراً يطابق كل منها الأخرى، فكل شخص هو عبارة عن مركز لتجارب أصلية، يجعله في النهاية فريد من نوعه. باختصار هناك مجموعة من العوامل التي يمكن أن تتدخل في سلوك كل شخص وتصرفه، وهذا ما يجعل من مهمة مراقبة هذه العوامل مهمة صعبة للغاية. هذا يجعل الملاحظة في هذه الحالة أمراً معقداً منه لو تعلق الأمر بدراسة حيوانات من نفس الفصيلة أو دراسة عينتين من نفس المعدن. إن حقل علوم الطبيعة يسمح بإعادة إنتاج و تكرار التجربة كلما دعت الضرورة إلى ذلك لأن مكونات الموضوع ستظل هي عينها فإن الأمر بالنسبة إلى الحالة الأولى (ميدان العلوم الاجتماعية) يختلف تماماً، ذلك لأن التجربة المخبرية في هذا الميدان مازال استعمالها محدوداً للغاية. ولكي تبقى متطابقة فإن الوضعيات والمواضيع تتطلب سلسلة من المحاذير والشروط التي لا يمكننا المحافظة عليها دائماً وبسهولة. وقد يكون هدفنا هو دراسة بعض السلوكيات المحددة فقط، ولا تقبل بذلك إلا بعض العناصر وعن طواعية. لهذا لا يمكن إعادة إنتاج عن طوعية وضعيات تمت دراستها، واعتبار ذلك كما لو أننا اشتغلنا حول مواضيع فيزيقية. (موريس أنجرس ، 2008، ص61)

بعبارة أخرى، فإن العالم المادي أكثر بساطة من العالم الإنساني. فالعالم الفيزيقي لا يمكنه إنتاج نفسه ولا إعادة إنتاجها. أما العالم الحي، فيمكنه ذلك، ولكن بدرجة أقل تعقيد من الكائن البشري لهذا فموضوع العلوم الاجتماعية هو أكثر تعقيد من موضوع علوم الطبيعة، حتى لو كنا سواء في هذا الجانب أو ذاك، لا نزال بعيدين كثيراً عن النفوذ إلى كل الأسرار. ذلك أن الكائن البشري يعطي معنى لأفعاله، وأن كل شخص هو ذات (أو هوية) أصلية وبالتالي يعد هذا مظهراً من مظاهر تعقد الموضوع. (موريس أنجرس ، 2008، ص61)

الأكثر من هذا، حتى وإن كان من الممكن أن يخضع الكائن البشري للقياس، فقياس أفعاله وتصرفاته ليس أمراً سهلاً، كما هو الحال للكائن المادي في علوم الطبيعة. في هذه الحالة الأخيرة، فإنه من الممكن استعمال مجموعة من الأدوات التي لا تمدد المعاني فقط ولكنها تمدنا بقياسات دقيقة للظواهر الانسانية المطلوب دراستها. أما في العلوم الاجتماعية، فإذا كانت بعض الظواهر قابلة للقياس مثل حساب تكاليف المعيشة أو الأجوبة عن استقصاء ما، فإن ظواهر أخرى مثل الهوية الوطنية أو العقد، لا يمكن فهمها بالضرورة بواسطة قياسات كمية. (موريس أنجرس ، 2008، ص61)

لتوضيح خصوصيات الموضوع في العلوم الاجتماعية، أعرض المقارنة التالية:

مادة العلوم الاجتماعية	مادة العلوم الطبيعية
1- له وعي بوجوده.	1- ليس له وعي بوجوده.
2- يعطي معنى لأفعاله.	2- لا يعطي معنى لأفعاله.
3- إنه من نفس طبيعة الملاحظ.	3- ليس من نفس طبيعة الملاحظ.
4- غير ممكن إعادة انتاجه.	4- يمكن إعادة إنتاجه.
5- معقد.	5- بسيط.
6- يقبل قياسه جزئيا.	6- يقبل القياس.
7- يقبل بالتحليل التفسيري.	7- يقبل بالسببية.
8- يقبل بالتحليل الفهمي.	8- لا يقبل بالتحليل الفهمي.
9- الكلمة تأخذ معاني متعددة.	9- الكلمة تذهب في اتجاه واحد.
10- تختار الكلمات لمعناها.	10- تختار الكلمات لدقتها.

¹ - ما عدى هذه الخصوصيات، توجد تشابهات بين مواضيع العلوم الاجتماعية ومواضيع علوم الطبيعة. فالأرض، مثلا، قد عرفت تطورا، بالضبط كما عرف الكائن البشري تطورا تاريخيا سواء بشكل فردي أو جماعي. فالموضوعان لهما إذا تاريخانية. هكذا، اعتقدنا، ومنذ زمن طويل، أن دراسة الإنسان هي وحدها التي مازلت عرضة للتدخلات بين الملاحظ والملاحظ، فإننا نعرف الآن عن طريق نتائج بعض التجارب الفيزيائية حول الجزيئات أن حضور الباحث يؤثر في دراسة الظاهرة. يوجد إذن تفاعل بين الموضوع والباحث في كلتا الحالتين، وبالتالي ينبغي علينا دائما أن نعيد النظر ما أمكن في علاقاتنا بالموضوع وذلك لكي نتجنب الخلط في معرفتنا الموضوعية التي نسعى إليها. إن علوم الطبيعة على الأقل فيما يتعلق بدراسة الأحياء، ولتكن الخلية، مثلا، لها موضوع يحظى ببعض الاستقلالية على غرار الكائن البشري، فالخلية يمكن أن تنمو وأن تعيد إنتاجها ومع ذلك فإن تعقدها قد تقلص كثيرا مقارنة بالخلية الإنسانية وخلية المجتمعات البشرية. في الأخير فإن العلم قد فتح أمام مداركنا، آفاقا جديدة وجذابة، يهدف من ورائها إلي تعليمنا دائما شيئا جديدا، سواء حول الإنسان أو حول الطبيعة، هذا زيادة على كونه طريقة لفهم الواقع. (CHALMERS Alain, 1991, P 46)

خلاصة:

من الواضح أن العلوم الاجتماعية تطورت بعد العلوم الطبيعية، أين تأثرت بمناهج العلوم الطبيعية، لكن مع مرور الوقت استطاعت هذه العلوم أن تتحرر من التبعية للعلوم والمفكرين الطبيعيين وأسست حقلا متكاملا خاصا بها تأخذ من الفرد الذي هو من نفس تركيبة الباحث موضوعا لها، إنه من الأهمية بما كان أن نعيد اليوم النظر في مكانة العلوم الاجتماعية بوصفها حقلا لإنتاج الفكر والمعرفة واقتراح الحلول لمختلف التغيرات الاجتماعية، باعتبارها تنطلق من الفرد لتعود للفرد. " يعود فشل استخدام العلوم الاجتماعية (في العالم العربي) لعدم تأسيسها على مشروع وطني تكاملي وتوافقي فكرا ومنهجيا وعقيدة ومحتوى ثقافيا.

الهوامش

- (1) موريس أنجرس: منهجية البحث في العلوم الإنسانية – تدريبات علمية-، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصة للنشر، الجزائر، 2008.
- (2) COHEN Yolande, Une perplexité de mise: Situation de la (3)recherche 1962-1984(II), " Recherches sociographiques, Vol, XXVI, n° 3, 1985.
- (4) UNIVERSITE Harvard, "Rapport de L'université Harvard sur le Tronecommun" (traduction du MEQ), The chronicle of Hogher Education, 1987.
- (5) GINGRAS François Pierre, Sociologie de la connaissance" Dans Recherche sociale, 2ed, 1992.
- (6) MUCCHIELLI Roger, L'entretien de face a face dans la relation d'aide, Paris, les Editions sociales françaises, 1969.
- (7) CHALMERS Alain, La fabrication de la science, Paris, La Découverte, 1991.
- (8) تصريح الدكتور عمر أزرّاح لجريدة الشروق اليومي الجزائرية الصادرة بتاريخ: 05 فيفري 2011، العدد 3195.